قبة الضلوع المتقاطعة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين

د. محمد محمد الكحلاوي

• مقدمة •

تنحصر القباب المرابطية في ثلاثة نماذج رئيسة، النموذج الأول يعرف بقبة العقود المركبة، والنموذج الثاني يعرف بقبة المقرنصات، وقد سبق وأفردت لكل منهما بحثاً مستقلاً[١].

أما هذا البحث فسوف يعرض بالدراسة للنموذج الثالث للقباب المغربية المرابطية وهو النموذج المعروف بقبة الضلوع البارزة بمدينة تلمسان[٢] وهذا النموذج الذي يشكل مع قبة المقرنصات عنصراً معمارياً فريداً، حيث يختلف نموذجاهما عن نموذج قبة العقود المركبة بمدينة مراكش[٣] من الناحية المعمارية لكونها قد شيدتا فوق مربع علوي يتقدم المحراب من أعلى بينما قبة مراكش قد خططت من سطح الأرض[٤]، ومن الجدير بالذكر أن عمارة تلك القباب في نماذجها الثلاثة قد طبعت العمارة المرابطية الدينية بخصائص ومميزات تجعلها تنفرد عن غيرها من القباب الأخرى.

وهذه الخصائص توضح قدرة المعمار المرابطي على ابتكاره لتلك النماذج بالرغم من أن عناصر تكوينها المعمارية من عقود ومقرنصات كانت معلومة في العمارة الإسلامية قبل عصر المرابطين بأكثر من قرنين(٥).

والجديد في القباب المرابطية هو محاولة المعمار المرابطي تجميع كل عنصر من العناصر السابقة داخل تكوين معماري مستقل، فبعد أن كانت تستخدم الحنايا المعقودة والمقرنصات كعناصر أساسية تميز مناطق انتقال القباب في العمارة الإسلامية، بدأ المعمار المرابطي في بنائه قباباً مقامة على شبكة معقدة من الضلوع البارزة أي العقود المتقاطعة وأخرى من المقرنصات، وهما يعدان بحق من أعظم ما أنتجته العمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

التكوين المعماري لقبة الضلوع (العقود المتقاطعة):

يعرف هذا النوع لدى الباحثين باسم قبة الضلوع البارزة (٦)، أو القنانات(٧) أو الأوتار(٨) أو الأقواس المتقاطعة(٩)، وقد جاءت تلك التسميات متفقة مع التصميم المعماري الذي يتطلبه التكوين الجديد في شكل القبة والذي استغنى فيه المعمار عن عنصرين أساسيين: أولهما الاستغناء عن غطاء القبة الكروي (الخوذة) المشيد من كتلة صماء والمعتاد بناؤها في القباب بشكل عام. وثانيهما الاستغناء عن منطقة الانتقال الممثلة في تحويل المربع إلى مثمن وذلك نتيجة للتصميم المعماري المبتكر الذي شيد فيه المعمار المسلم نموذج قبته الجديدة من شبكة من الأوتار الحجرية أو الآجرية التي تنطلق أطرافها من فوق الحافة العليا لمنطقة المربع العلوي. وتأخذ تلك الأوتار مسارات مختلفة مدها المعمار على الأضلاع المتقابلة من المربع العلوي ونتج عن تقاطع مسارات تلك الأوتار بناء

هيكل لقبة متماسك الأطراف، وفي ظل هذا التصميم يكون المعمار قد وفق ولأول مرة في بناء قبة دون الحاجة لمنطقة انتقال أو بناء غطاء كروى (خوذة) مسمط وهما العنصران الأساسيان اللذان يعدان من أهم العناصر الأساسية في بناء القباب بشكل عام (انظر اللوحات ١، ٤، ٥) وقد مهد نجاح المعمار في بناء قبته الجديدة إلى ابتكار عنصر معماري وزخرفي آخر لا يقل في أهميته عن تلك الشبكة الوترية التي نسج منها هيكل قبته.

ويتمثل هذا العنصر الجديد في مجموعة التكسيات الجصية المفرغة والتي ملأ بها المعمار المساحات الواقعة بين مسارات الأوتار الحجرية والآجرية البارزة وأصبحت على أثرها خوذة القبة أشبه ما تكون بالحشوة الزخرفية[١٠].

ولقد سمحت التفريغات الجصية بنفاذ الضوء من سطح القبة الخارجي إلى داخل القبة بشكل أكثر وضوحاً عما كانت تؤديه النوافذ المفتوحة في رقبة القبة في القباب الأخرى، ولذا عرف هذا النوع من القباب باسم (قبة الضوء)[١١]، وفي تصوري أن الوازع على ابتكار هذا النوع من القباب كان وراءه الحاجة الماسة لإنارة الموقع الذي كانت تغطيه هذه القباب وهو الموقع الذي حرص المعمار على إبرازه بشتى الوسائل، نظرا لكونه يحتوي من أسفل على المحراب والمنبر بجانب كونه الموقع المخصص لصلاة الإمام والخليفة[١٢]. والذي لا يكاد يصل إليه شعاع الضوء إلا بصعوبة من خلال مجموعة النوافذ المفتوحة بجدار القبلة ولذلك جاءت رغبة المعمار في إنفاذ مزيد من الضوء ليغمر به المقصورة [١٣] التي كانت غالبا ما تغطيها هذه القباب تأكيداً منه لأهمية الموقع إلى جانب محاولته إبراز عناصره الفنية الرائعة التي شغل بها هذا النوع من القباب.

والخلاصة . . . . فإن التكوين المعماري لمثل هذه القباب أشبه ما يكون «بالهيكل العظمي» المنسوج من شبكة معقدة من الضلوع أو العقود المتقاطعة

(انظر اللوحات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦)، ثم يملأ بين الضلوع بشبكة أخرى غاية في التعقيد تتكون من عناصر زخرفية نباتية مورقة نفذت في ألواح من الجص المفرغ (انظر اللوحات ٢ ، ٦ ، ٧)، فتظهر القبة وكأنها نسجت على «نول» لتخرج لنا تحفة فنية أشبه ما تكون بقطعة نسيج نفذت زخارفها بالتفريغ ، ويكفي أن يرى المرء أشعة الشمس وهي تقع على سطح القبة لتنبعث من بين الفراغات الجصية وتنعكس على لون الزجاج المعشق لتضيء التكوينات الزخرفية على الشمسيات فتجعل القبة وكأنها تتلألأ في ألوانها المختلفة (انظر اللوحات ٢ ، ٦ ، ٧).

ولا سبيل أمامنا لنعبر عن مثل هذه الأعمال إلا أن نقول إنها الرغبة القوية التي رسخت لدى المعماريين المسلمين والتي جعلتهم ينتجون ويتقنون في صناعة القباب على تلك الشاكلة التي لا نظير لها في أي فن سابق أو لاحق على الإسلام ويكفي أن نشير إلى أن نماذج تلك القباب كانت المثل الذي يحتذى في بناء قباب الكنائس في أوربا بعد ذلك(١٤).

أولا ـ الوصف المعماري لقبة الضلوع المتقاطعة بجامع تلمسان(١٥):

يعد هذا النوع من القباب هو أقدم النماذج الثلاثة في القباب المرابطية ، وتعد القبة التي تتقدم محراب جامع تلمسان بالجزائر والمؤرخة في ٥٣٠هـ/ ١١٣٧م، هي أقدم نموذج مغربي من هذا النوع ، وقد شيدت هذه القبة في عهد الأمير علي ابن يوسف بن تاشفين ضمن الأعمال والإضافات المعمارية التي أدخلها على عمارة مسجد تلمسان الذي شيده والده عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م(١٦)، وتغطي قبة تلمسانة جزءًا من سقف بيت الصلاة في الموقع الذي يتقدم المحراب من أعلى .

والتكوين المعماري للقبة مكون من اثني عشر عقداً كبيراً بارزاً، وتتقاطع تلك العقود فيما بينها في مناطق عديدة بباطن القبة ، بحيث تكون عند كل تقاطع

أشكالا هندسية معقودة، وهذه التقاطعات تمر جميعها بعيدا عن مركز القبة[١٧] (انظر اللوحتين ١ ، ٢).

ويبدو أن عدم مد أوتار الضلوع لتتقاطع في مركز باطن القبة أسلوب إنشائي لجأ إليه المعمار حتى لا يضعف امتداد تلك العقود، ولو قدر لتلك الأوتار أن تتقاطع عند مركز القبة لكانت أقل تماسكا، (انظر اللوحة رقم ١).

ويبدأ التكوين المعماري لهذه القبة بانطلاق بدايات أرجل العقود من على أضلاع المربع العلوي للقبة، إذ جعل المعمار كل ضلع من أضلاع مربع القبة العلوي وسادة أو مركزا ترتكز عليه ثلاث أرجل مزدوجة وملتصقة عند منابتها من على المربع (انظر اللوحة ١) وتنفصل هذه الأرجل عند انطلاقها على باطن القبة لتتقاطع مع مثيلتها ذات المسار المعاكس (انظر اللوحة رقم ١)، أما أرجل تلك العقود التي ترتكز على امتداد أضلاع المربع العلوي فقد شكلها المعمار على هيئة معمارية مكونة من شكل ثعباني (انظر اللوحة رقم ١) يرتكز بدوره على حرمدانات مشطوفة[١٨] (انظر اللوحة رقم ١)، وقد ملأ الفنان المرابطي الفراغات الناتجة من شبكة العقود المتقاطعة بألواح مفرغة في الجص (شمسيات) ومزخرفة بتكوينات زخرفية فريدة، قوامها عناصر نباتية وسيقان مورقة ومراوح نخيلية مزدوجة وأخرى منفردة وأشكال صنوبرية[١٩] وغيرها (انظر اللوحتين ١ ، ٢).

أما مركز القبة من الباطن فقد شكله المعمار من قرص دائري مكون من حطات مقرنصة وظيفتها فنية أكثر منها معمارية (راجع اللوحة ١).

ومن أهم مميزات تلك القبة تخفيف الثقل الذي نتج عن استخدام شبكة العقود لبناء هيكل القبة، على عكس القباب الأخرى التي تشيد من بدن مصمت ومواد بنائية صماء.

وتحتفظ مدينة أشبيلية بمثال آخر من هذا النوع من القباب ربما يكون بناؤه معاصراً لبناء قبة تلمسان وهي تقع بالقرب من صحن الرايات في الدار رقم (٣) المطلة على صحن الرايات الملحق بقصر أشبيلية، وهذه القبة ترجع إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والتكوين المعماري للقبة مشابه إلى حد كبير لقبة تلمسان، لذلك أرجعها الباحثون لعصر المرابطين، وقد ركبت القبة على قاعدة مربعة، وهي تتكون من ستة أزواج من التضليعات شيدت من الآجر تتقاطع فيما بينها مكونة أشكالا لعقود متقاطعة ومتشابكة، ويتوسط باطن القبة قبيبة صغيرة من المقرنصات (انظر اللوحة رقم ٣)، أما المساحات الواقعة بين أوتار القبة فقد كانت تزدان بعناصر زخرفية إلا أنها قد تلاشت [٢٠] الآن.

الأصول المعمارية لقبة العقود المتقاطعة (الضلوع):

انتشر هذا النوع من القباب ذات العقود المتقاطعة في كل من شرق العالم الإسلامي وغربه وإن كان الغرب الإسلامي، وبخاصة الأندلس هو صاحب الفضل الأول في ابتكار مثل هذه القباب إذ ما زالت الأندلس تحتفظ عمارتها الإسلامية بأقدم أمثلة لتلك النماذج والموجودة في جامع قرطبة، وهي تعد من الإضافات المعمارية التي شيدها الخليفة المستنصر عام ٣٥٤هـ/ ١٠٥٥م، وقد عرف هذا النموذج القرطبي من القباب بقبة الضلوع [٢١] نظرا لبناء هيكل القبة من ضلوع حجرية بارزة كما سبق وأن أوضحت (انظر اللوحتين رقمي ٤، ٥).

أما الأمثلة المشرقية لهذا النوع فلم تكن من حيث الشكل المعماري والصفة الزخرفية على شاكلة النماذج الأندلسية والمغربية (انظر اللوحتين ٨، ٩). وتنحصر أهم أمثلتها في العراق وإيران في العصر السلجوقي [٢٢]، وقد شيدت شبكة عقود تلك القباب بالآجر، وليس بالحجر، كما هو في النموذج القرطبي.

كما أن الأماكن التي تغطيها تلك القباب في النماذج المشرقية أماكن ضيقة لم تتوفر لها مصادر الإضاءة الكافية لتسمح لمصادر الضوء بأن تنعكس على الشمسيات لترى بوضوح. ومن أهم أمثلتها هناك قباب العقود في جامع أصفهان[٢٣] بإيران التي تغطي جزء ظلة القبلة (انظر اللوحتين ١٠، ١١)، ولقد أرجع بعض الباحثين هذا النوع من القباب إلى أصول شرقية، حيث اعتبر بعضهم قباب جامع أصفهان هي المصدر الذي استوحى منه المعمار القرطبي نموذجا لبناء قبته[٢٤]، كما اعتبر البعض الآخر هذا النوع من القباب مأخوذا من التغطيات الساسانية[٢٥].

وفي الواقع أن نسبة هذه القباب إلى أصول مشرقية غير مؤكدة، نظرا لأن أمثلتها هناك، وخاصة الموجودة في جامع أصفهان تاريخها لاحق على تاريخ القباب القرطبية [٢٦] إلى جانب اختلاف النموذج الإيراني عن النموذج القرطبي من حيث مادة بناء كل منهما حيث شيدت قبة قرطبة من شبكة وترية من ضلوع حجرية بارزة بينما شيدت قبة أصفهان من أوتار مشيدة من مداميك آجرية إلى جانب الثراء الزخرفي الذي فرضه التصميم الجديد في النموذج القرطبي بينما تنحصر الزخرفة في النموذج الإيراني في مداميك الآجر فقط [٢٧] (انظر اللوحتين رقمي ١٠، ١١).

ومن الباحثين من أرجع نسبة هذا النوع من القباب إلى أصول مغربية حيث انطلقت فكرتها الأولى من التجويفات أو التفصيصات التى شغلت في باطن الأرض قبة المحراب بجامع القيروان المؤرخة ٢٢١هـ/ ٨٦٥م، وكذلك باطن قبة المحراب في جامع الزيتونة المؤرخة في ٢٥٠هـ/ ٨٨٤م[٢٨].

وفي الحقيقة إنني أرجح الرأي الأخير الذي يعتبر هذا النموذج من القباب مرحلة متطورة من القباب التونسية، ولذا لم تخرج أصول هذا النوع من القباب

من منطقة المغرب والأندلس، إذ تعتبر القبة التي تتقدم المحراب في جامع القيروان والمؤرخة ٢٢١هـ/ ٨٦٥م (انظر اللوحتين رقمي ١٢، ١٣)، هي أقدم نماذج القبة ذات التفصيصات[٢٩]، وقد شيدت على غرارها قبة المحراب في جامع الزيتونة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، التي تمتاز بأن تفصيصاتها أكثر بروزا، ويؤكد أحمد فكري أن قبة المحراب بجامع الزيتونة تعبر بوضوح عن غيرها في قبة القيروان عن فكرة تحويل الكتلة الصماء في خوذة القبة إلى هيكل تبرز عظام ضلوعه بشكل واضح إلى جانب ملء الفنان للفراغات الواقعة بين أوتارها بحشوات زخرفية[٣٠] وقد أكد ذلك لامبير حيث ذكر أن نظام التجزئة الظاهر في القباب التونسية ينبئ عن التطور الذي حدث فيما بعد لا في قرطبة فحسب بل في القباب الأسبانية[٣١] الأخرى، ويعد نموذج القباب التونسية هو النموذج الذي انتشر في قباب المساجد والمشاهد الفاطمية في مصر[٣٢]، والفرق بين تضليعات القباب القيروانية والقباب القرطبية هو أن القباب القيروانية تجمع تفصيصاتها في مركز باطن القبة [٣٣]. بينما تتقاطع العقود في النموذج القرطبي بعيداً عن مركز باطن القبة [٣٤](انظر اللوحات ٤، ٥، ١٢، ١٣).

دراسة مقارنة بين نموذجي القباب القرطبي والقبة المرابطية بتلمسان:

رأى بعض الباحثين أن قبة الضلوع المتقاطعة بتلمسان قد شيدت على شاكلة القباب الأندلسية في جامع قرطبة ٣٥٤هـ/ ١٠٥٥م، والحقيقة أنه ليس من شك أن قباب جامع قرطبة تشكل في مجموعها طرازاً معماريًا وفنيًا فريداً في عمارة القبة في العصر الإسلامي. وليس من شك أن القباب القرطبية قد انتقل تأثيرها شرقاً وغرباً[٣٥]، ولذا ليس ببعيد أن يتأثر المعمار المرابطي عند بناء قبته بالنموذج القرطبي من حيث فكرة التخطيط فقط، ولكن اختلف عنها النموذج المرابطي

من حيث مادة البناء ومن حيث التخطيط المعماري لمجموعة الأوتار البارزة التي تشكل هيئة القبة (انظر اللوحات ٣، ٤، ٥)، وكذلك من حيث استخدام العناصر الزخرفية، وهذا ما سوف أوضحه من خلال الدراسة المقارنة بين النموذجين القرطبي والتلمساني.

وبالرغم من أصالة التخطيط القرطبي فإن قبة تلمسان تنفرد بخصائص ومميزات تجعلها أكثر تطوراً من قبة الضلوع بجامع قرطبة، كما جعلت منها نموذجاً يحتذى به في بعض أمثلة القباب التي شيدت على غرارها في المغرب والأندلس، وأهم هذه الخصائص هي:

أولاً: بناء أوتار قبة تلمسان من مداميك[٣٦] الآجر الرفيعة، بينما شيدت أوتار قبة قرطبة من سنجات حجرية سميكة (انظر اللوحات ١، ٢، ٤، ٥).

ثانياً: تعد الشبكة الوترية في قبة تلمسان أكثر تعقيدا من شبكة التضليعات في قبة قرطبة حيث يرتكز على كل ضلع من أضلاع المربع العلوي في قبة تلمسان ستة أوتار، أي أن مجموعة أوتار الضلوع المرتكزة على مربع القبة العلوي قد وصل في قبة تلمسان إلى أربعة وعشرين[٣٧] وترا، بينما في قبة قرطبة جاءت الشبكة الوتارية للضلوع أقل من ذلك إذ يبلغ عدد ما ترتكز عليه كل منها على قاعدة المربع العلوي أربعة أوتار فقط أي أن مجموعها الكلي قد بلغ ١٦ وتراً، وهذا أقل بكثير من العدد المكون للشبكة الوتارية في قبة تلمسان (انظر اللوحتين ١، ٤).

ثالثاً: تتميز قبة تلمسان بأنها أكثر عمقا من قبة قرطبة وذلك نتيجة لعدة عناصر أهمها:

أ ـ امتداد مسارات أوتار الضلوع في قبة تلمسان على محيط القبة الداخلي بحيث تكون أقرب إلى مركز القبة عنها في قبة قرطبة والتي لم يتجاوز امتدادها

منتصف محيط القبة الداخلي (انظر اللوحات أرقام ١ ، ٤ ، ٥).

ب ــ فرض امتداد مجموعة الأوتار في باطن القبة بتلمسان على تعدد مراكز تقاطعها على محيطها ، حيث وصلت إلى ستة وثلاثين مركزا مختلف الموضع ، بينما في قرطبة العكس تماما فمسارات أوتار الضلوع الحجرية أبعد بكثير من مركز القبة إلى جانب أن عدد مراكز تقاطع أوتارها محدود بأربعة مراكز فقط وضعها المعمار في مواضع محددة في أعلى زوايا المربع العلوي (انظر اللوحتين ٤ ، ٥).

رابعاً : تتسم الشبكة الوتارية في قبة تلمسان بالخفة بالرغم من كثافة تعقيدها عنها في قباب قرطبة .

خامساً : نتج عن قلة سمك أوتار الضلوع في قبة تلمسان إيجاد مساحة أكبر للشمسيات الجصية ، ولذلك جاءت قبة تلمسان أكثر إضاءة من قبة الضوء في جامع قرطبة (انظر اللوحتين رقمي ٢ ، ٥).

سادساً : عدد العناصر المعمارية المستخدمة في قبة تلمسان أكثر من مثيلاتها في قباب قرطبة فقد استخدم المعمار المرابطي الحرمدانات كمتكأ ترتكز عن طريقه الأوتار على إطار مربع القبة العلوي . . . ، في حين استخدم المعمار القرطبي الأعمدة الصغيرة في قبة المحراب بقرطبة وجعل مثلث الأوتار يرتكز مباشرة على إطار المربع في قبة الضوء (انظر اللوحتين ١ ، ٤) كما استخدم المعمار المرابطي المقرنصات في القبيبة التي تتوسط مركز القبة في حين استخدم المعمار القرطبي التفصيص في قبابه (انظر اللوحات أرقام ١ ، ٤ ، ٥) وكذلك استخدم المعمار المرابطي نوعاً جديداً من العقود الثلاثية التي تتميز رءوسها بأنها أكثر امتدادا وأقل اتساعا .

سابعاً: تنفرد قبة تلمسان بكثافة زخرفتها وثرائها الفني المقام على شبكة معقدة من الزخارف النباتية وهي تذكرنا من هذه الزاوية فقط بالأسلوب الفني في **قصر الجعفرية بسرقسطة** ولكن مع الاحتفاظ لزخارف قبة تلمسان بعناصرها المبتكرة التي ميز بها الفنان المرابطي منشآته . . . إذ تمثل مجموعة الزخارف التي شغلها الفنان المرابطي على قبة تلمسان طرازاً فنيًا مرابطيًا خاصًا اعتمد فيه الفنان على أشكال المراوح النخيلية مقسمة إلى عدة وريقات حيث تبدأ بورقة على هيئة حلقة تتلوها وريقتان منحنيتان انحناء خفيفاً، وهو طراز ليس له في المغرب نظير ولم يثبت الباحثون أصولها الأندلسية بالرغم من عثورهم على نماذج مشابهة لتلك العناصر منفذة على الجص في مدينة المورد بغرناطة، وفي قصر الكاستيغو بفحص المرية(٣٨).

والحقيقة أن كلاً من قباب جامع قرطبة والقباب المرابطية كانت موئلاً خصباً لجميع النماذج التي شيدت على غرارها مع احتفاظنا للنماذج القرطبية بكونها أقدم النماذج المؤكدة تاريخيًا، فعلى غرار النموذج القرطبي شيدت القبة التي تتقدم المحراب من أعلى في مسجد الباب المردوم بطليطلة(٣٩) ٣٩٠هـ/ ٩٩١م.

كما بدأ تأثير قباب قرطبة يظهر في كنائس المستعربة والكنائس الأسبانية ومن أمثلتها قباب كنيسة سان ميجيل دي إسكالادا «San Miguel de Escalada» والتي تعد من أقدم القباب المقتبسة من قباب جامع قرطبة، كما يظهر تأثير قباب قرطبة في قباب كاتدرائيتي سموره «Zamora» وشلمنقة «Salammaca»(٤٠).

أما القباب المرابطية فكانت هي الأخرى ذات تأثير واضح على القباب التي شيدت في الأندلس في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ومن أمثلتها

القبة القائمة في الدار رقم (٣) الواقعة على مقربة من صحن الرايات بأشبيلية[٤١] (انظر اللوحتين رقمي ١ ، ٣).

كما كان تأثيرها واضحاً على القباب المغربية المشيدة في نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ومن أمثلتها القبة التي تتقدم المحراب في جامع تارا بالمغرب الأقصى في الزيادة المرينية المؤرخة[٤٢] بسنة ٦٦٣هـ/ ١٢٩٣م، وهي تعد صورة واضحة من حيث تخطيطها وزخرفتها من قبة المحراب في جامع تلمسان (انظر اللوحتين رقمي ٦ ، ٧)، وعلى هذا تكون قد مارست كل من قباب جامع قرطبة والقباب المرابطية تأثيرها الواضح على عمارة القباب الأخرى. ولم يقف تأثير قبة تلمسان على الأندلس والمغرب فقط بل امتد إلى أوروبا، ومن أمثلة ذلك قبة العقود التي تغطي كنيسة «سان سيلكر وفي نفارو» في إيطاليا (لوحة رقم ٨) وكذلك قبة العقود المتقاطعة التي تغطي كنيسة «سان لورنزو» في إيطاليا[٤٣] (انظر لوحة رقم ٩).

والخلاصة أن كلا من قباب جامع قرطبة وقبة المحراب بجامع تلمسان كانت ومازالت تعبر عن فن راق أبدع فيه المعمار القرطبي والمغربي بكل المقاييس واستطاع أن يجعل منهما النموذج الذي سوف تشيد على غراره قباب الكنائس في أوروبا.

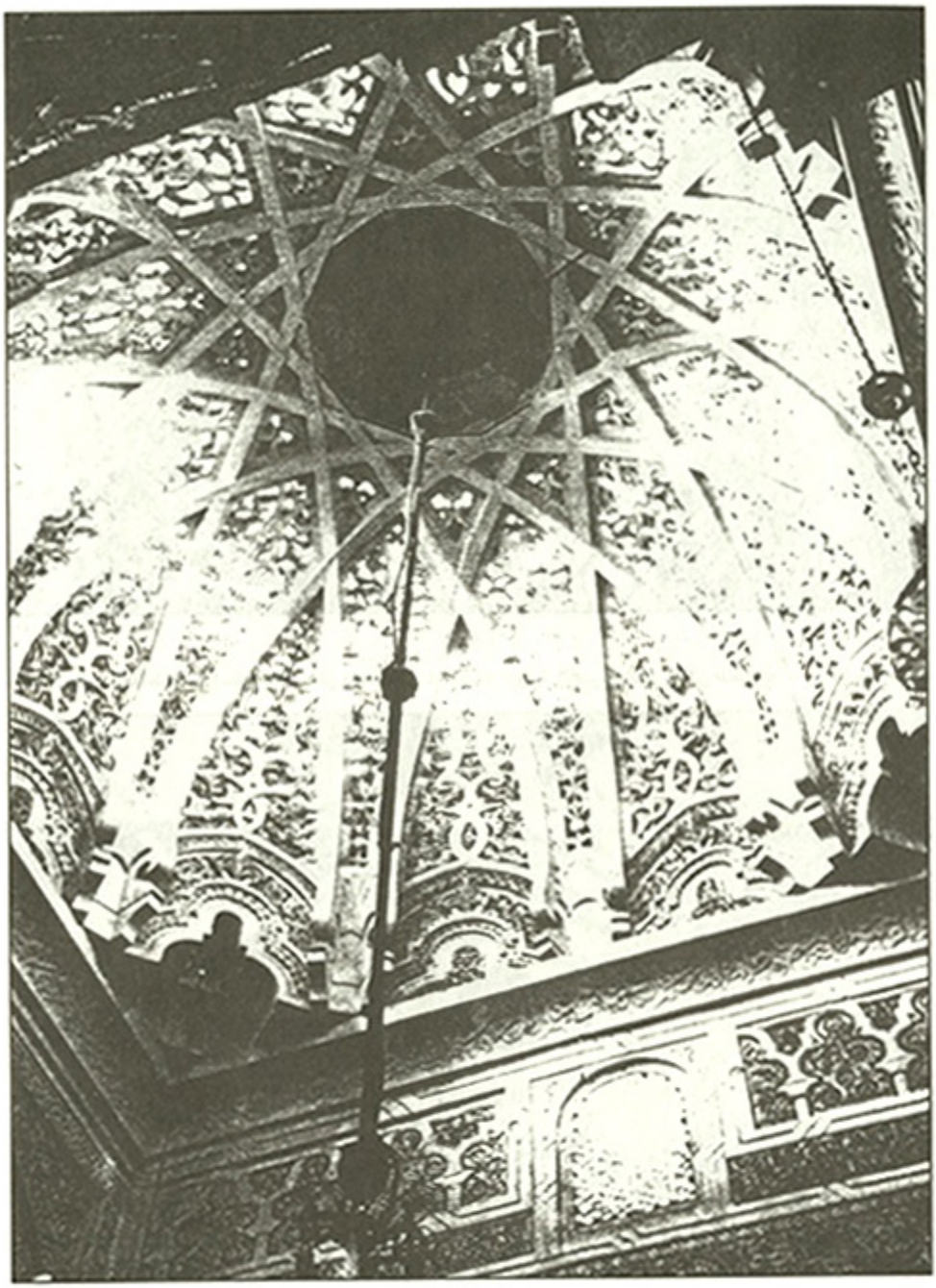

لوحة (١)

قبة العقود المتقاطعة المرابطية التي تعلو محراب جامع تلمسان بالجزائر

والتي تعد أقدم نماذج هذا النوع في القباب المغربية

« عن هيل »

لوحة (٢)

قبة العقود المتقاطعة المرابطية بتلمسان وتفاصيل لمجموعة الأوتار الآجرية البارزة من الخارج « عن مارسيه »

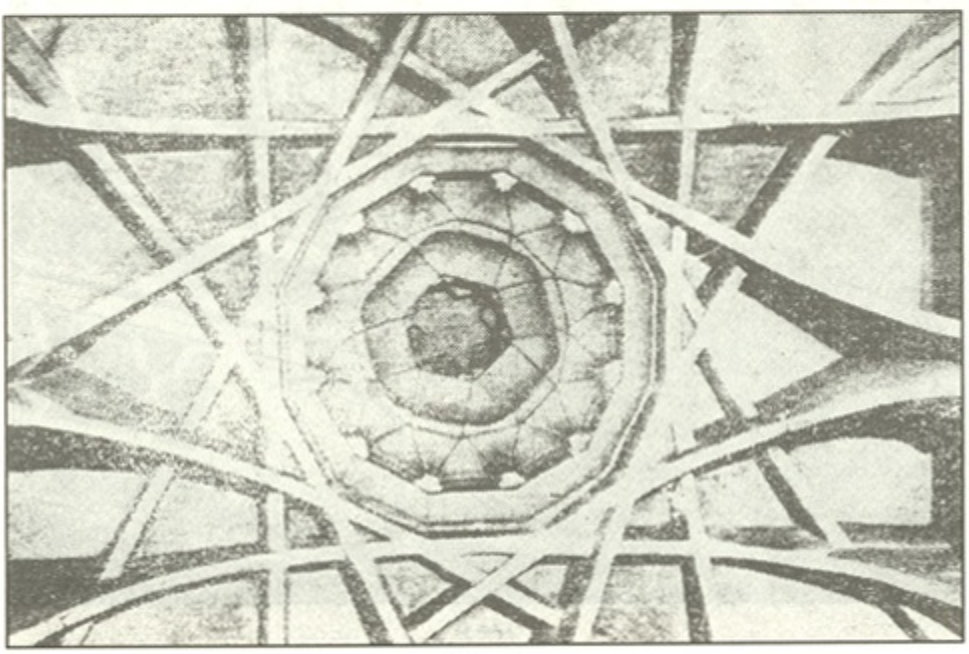

لوحة (٣)

قبة العقود المتقاطعة المرابطية الواقعة في دار رقم (٣) المطل على صحن الرايات باشبيلية « عن بلياس »

لوحة (٤)

قبة الضلوع البارزة التي تقدم محراب جامع قرطبة، وهي من إنشاء الخليفة الحكم المستنصر عام ٣٥٤هـ/١٠٥٥م.

« عن : Titus »

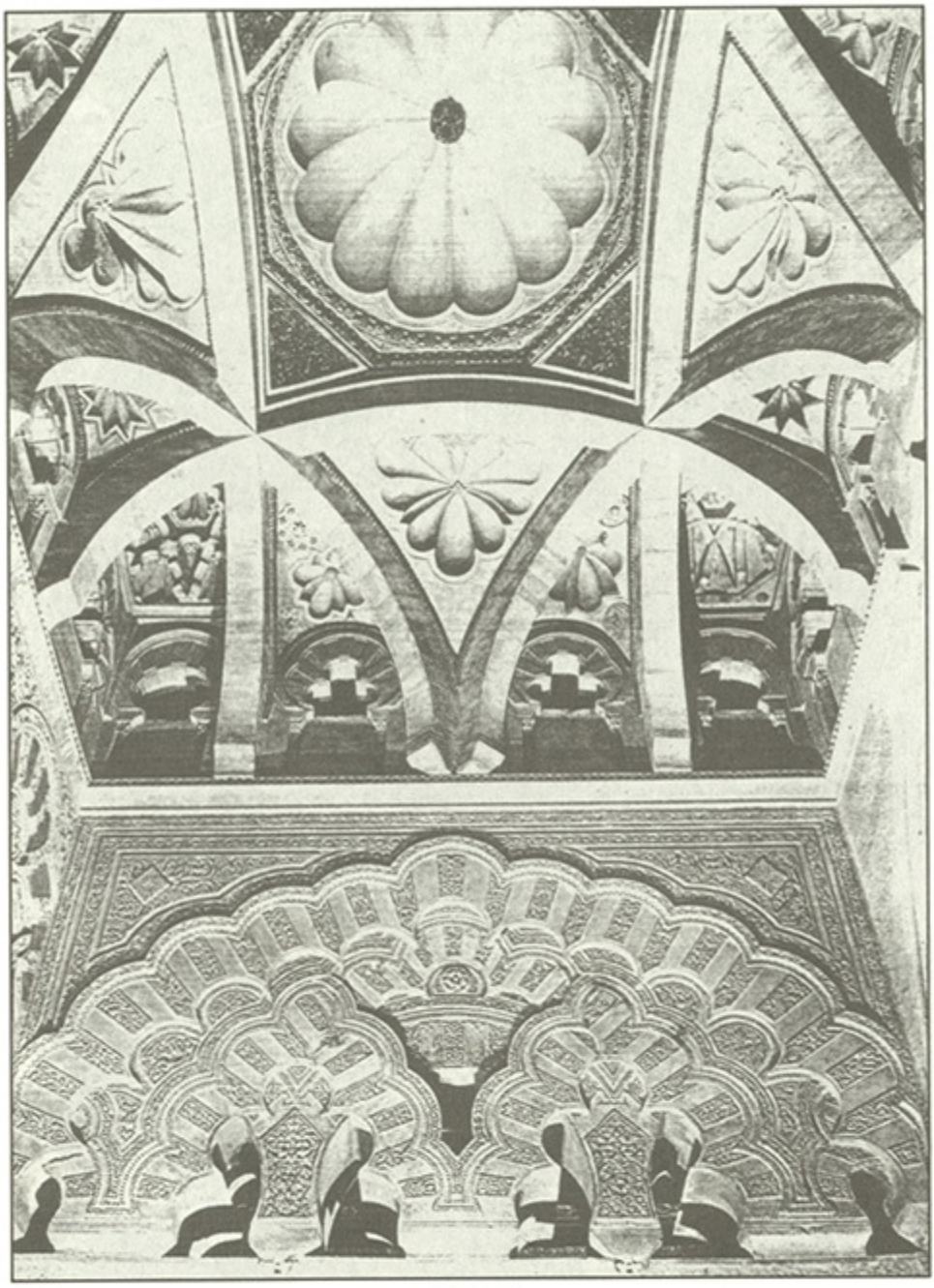

لوحة (٥)

قبة الضلوع البارزة المعروفة بقبة الضوء، تغطي بداية البلاطة الوسطى بجامع قرطبة،
وهي من إنشاء الخليفة الحكم المستنصر ٣٥٤هـ « عن: د. عبد العزيز الدولاتي »

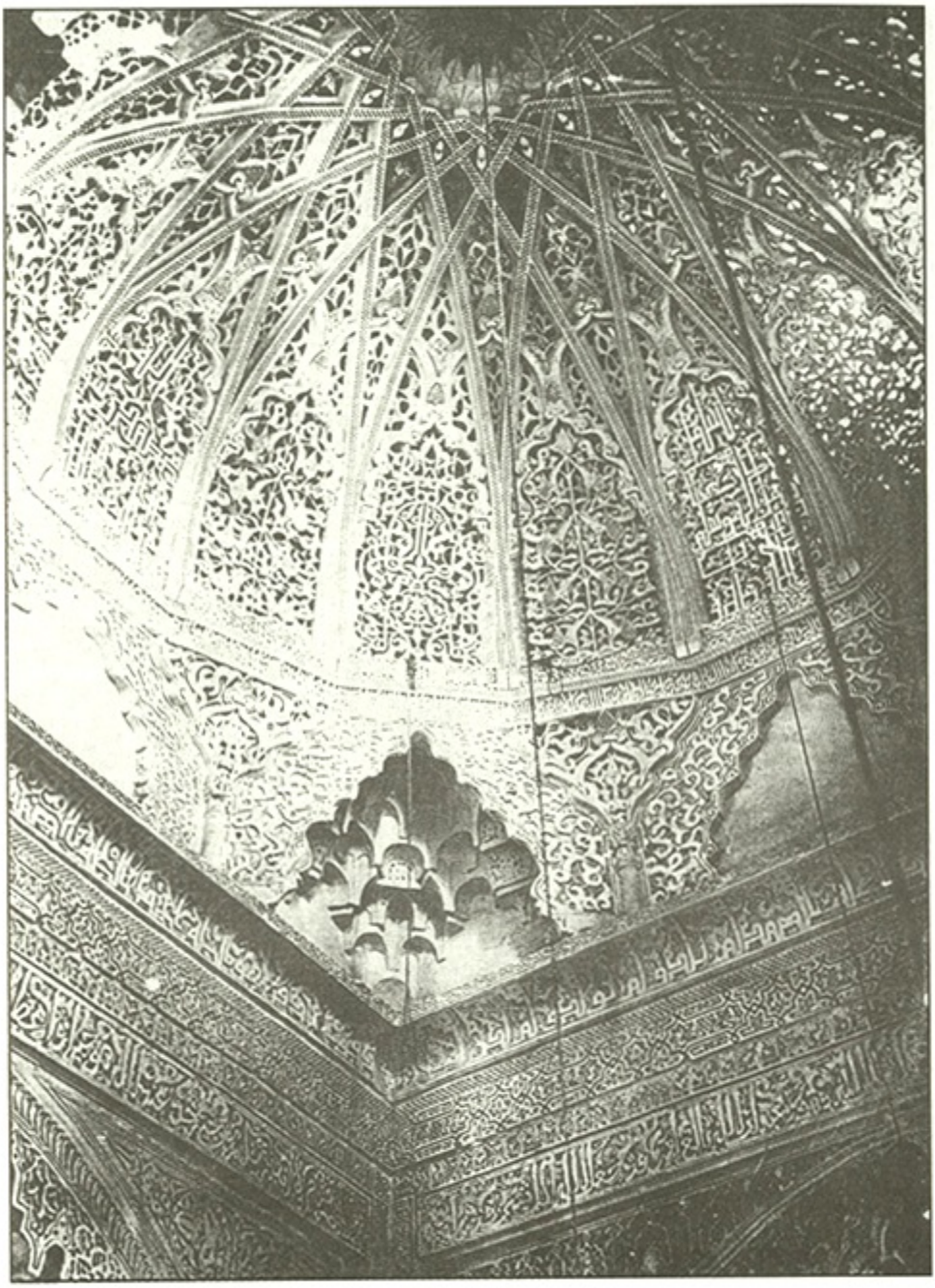

لوحة (٦)

قبة العقود المتقاطعة التي تعلو المحراب بجامع تازى المرني والتي شيدت على غرار قبة العقود المرابطية بتلمسان « عن الباحث»

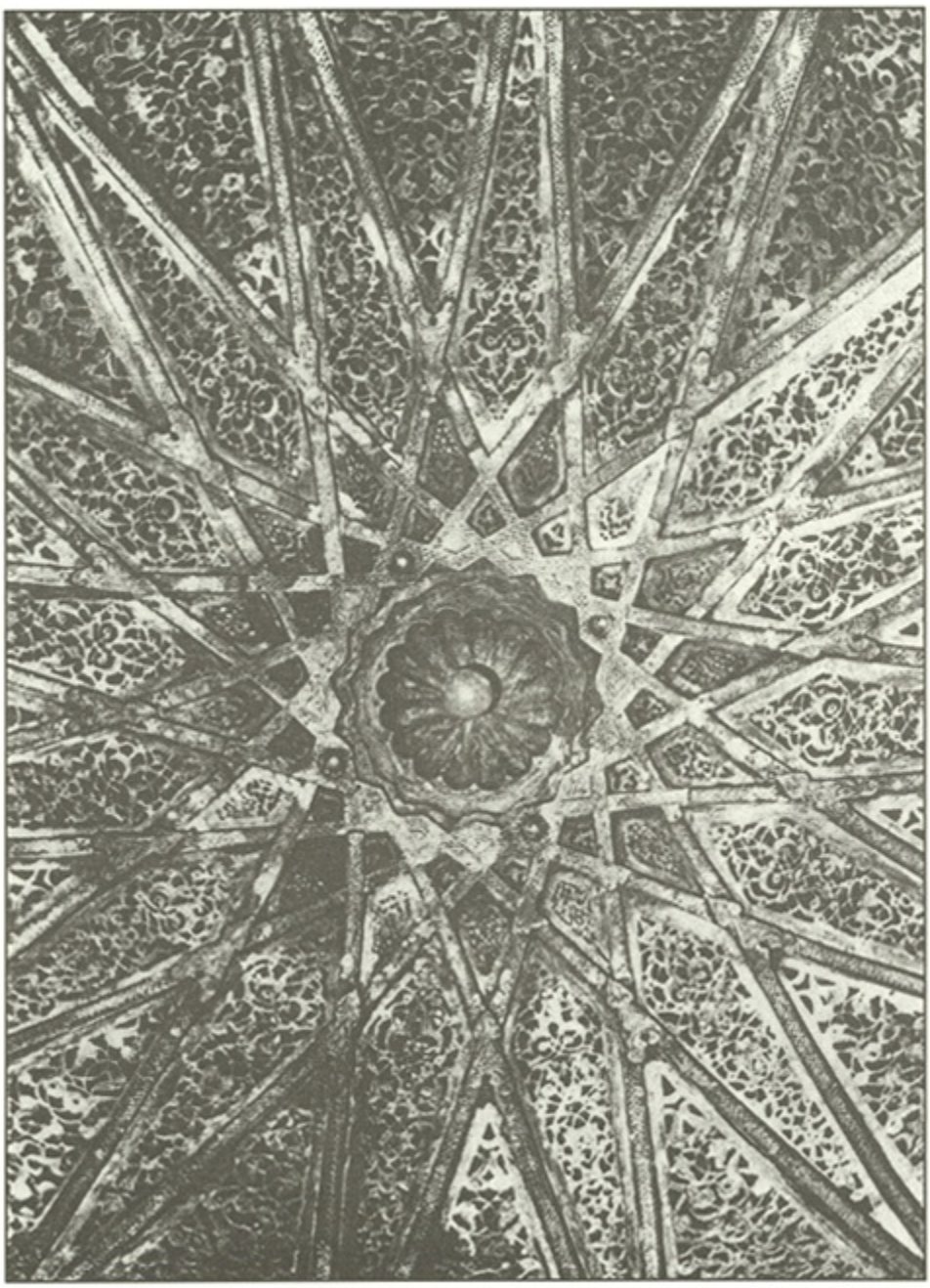

لوحة (٧)

قبة العقود المتقاطعة بجامع تازى، وتفاصيل لمجموعة الأوتار البارزة التي شكل منها هيكل القبة (عن:هيل)

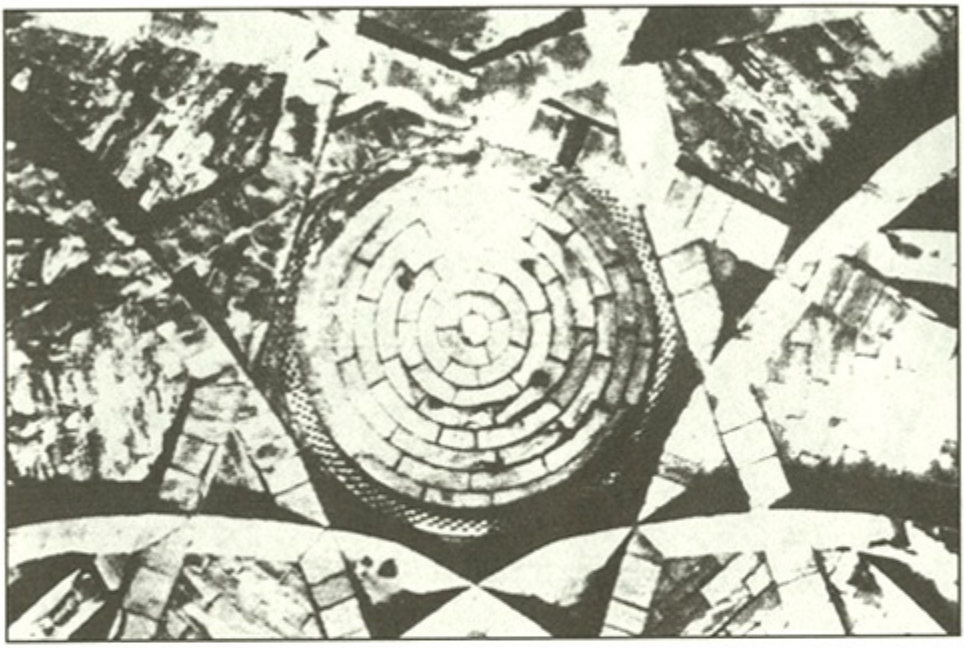

لوحة (٨)

إحدى القباب الإيطالية في كنيسة سان سيلكرو في نفارو وقد شيدت على غرار قبة تلمسان المرابطية «عن: شافعي»

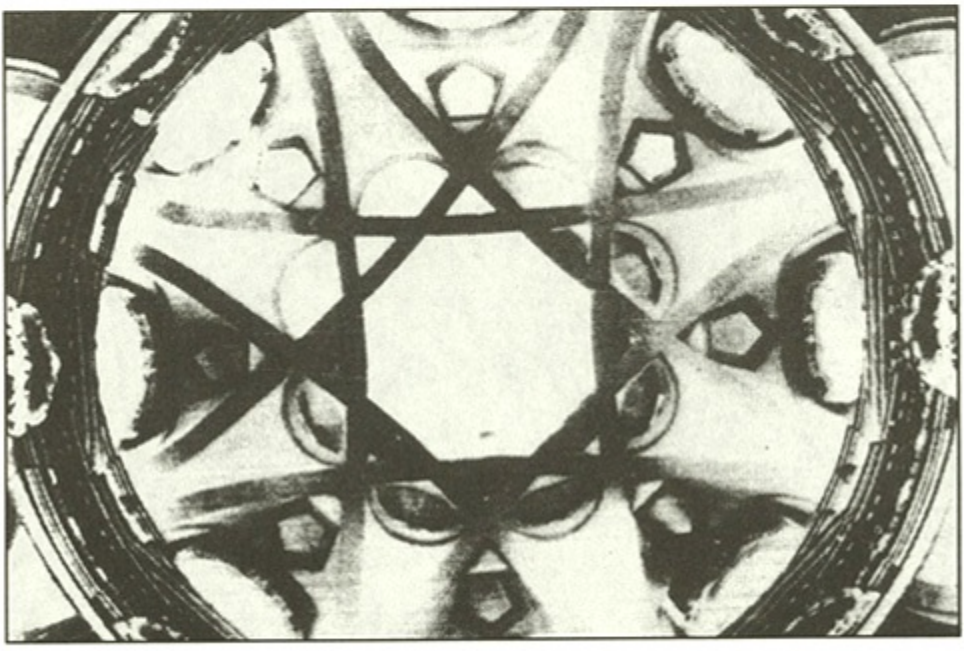

لوحة (٩)

إحدى القباب الإيطالية في كنيسة سان لورنزو، ويتضح فيها التأثير الإسلامي «عن: شافعي»

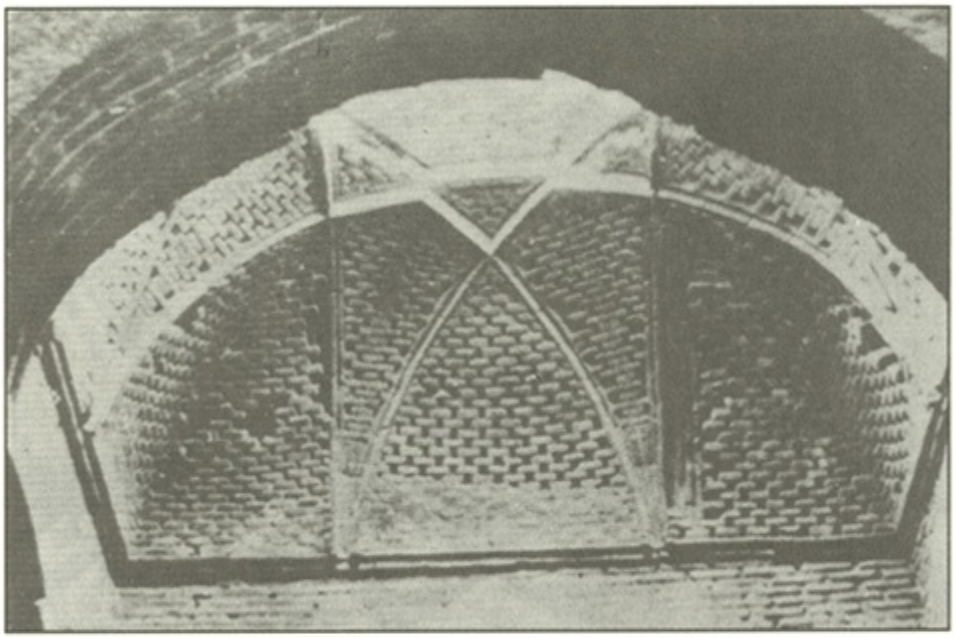

لوحة (١٠)

قبة العقود المتقاطعة في المسجد الجامع بمدينة أصفهان بإيران «عن موسوعة الفن الفارسي»

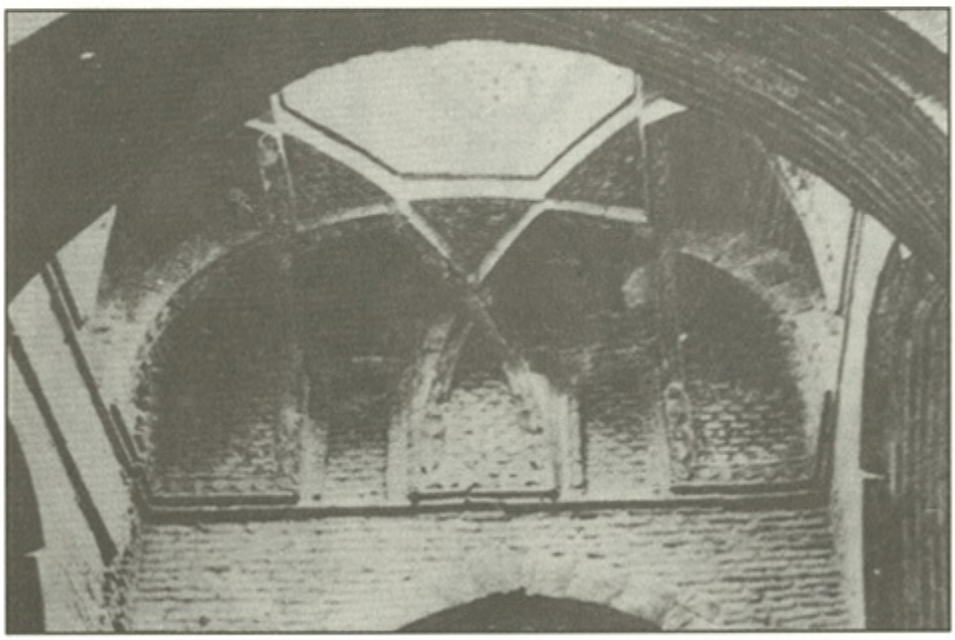

لوحة (١١)

قبة العقود المتقاطعة في المسجد الجامع بمدينة أصفهان بإيران «عن موسوعة الفن الفارسي»

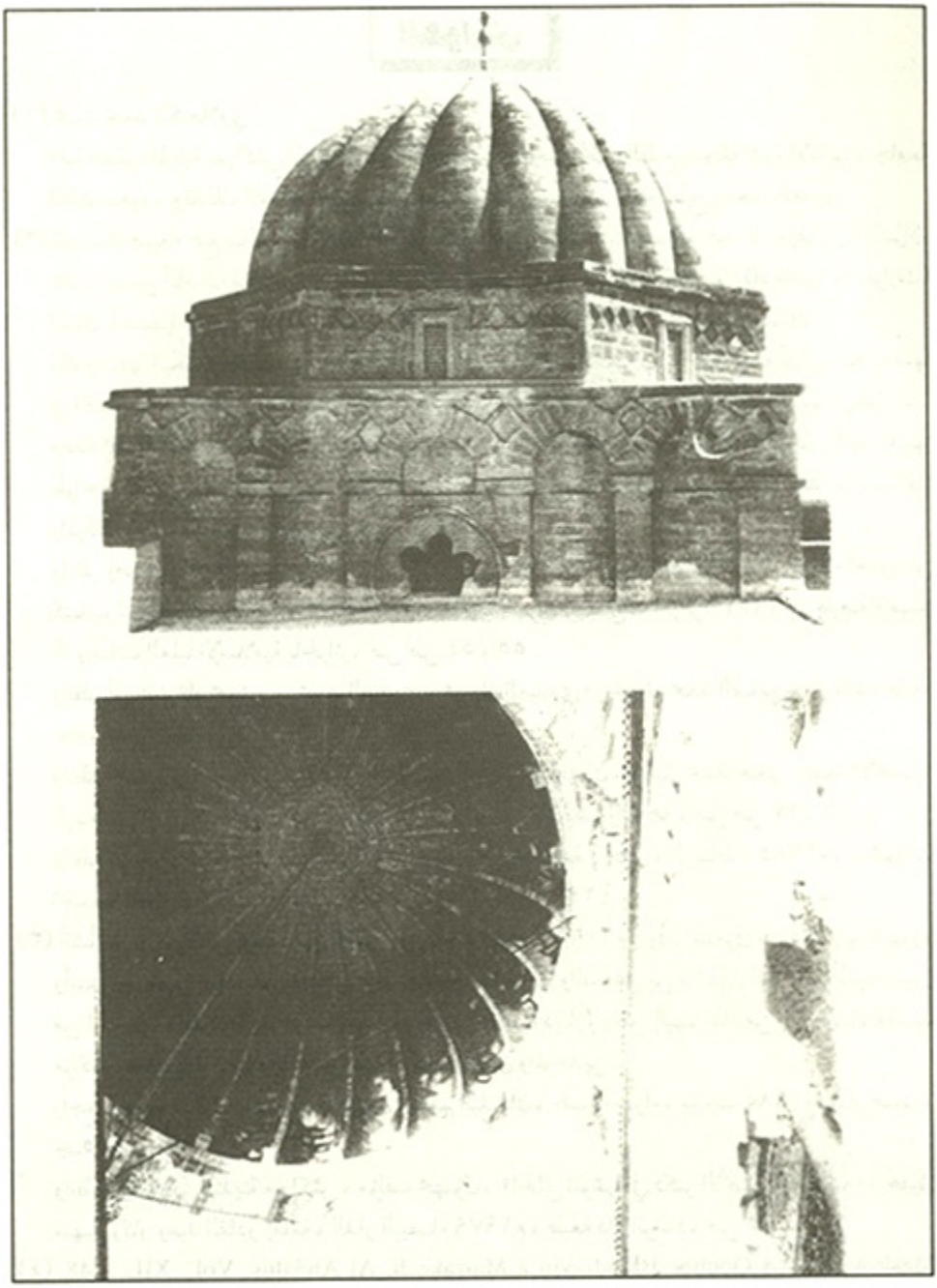

لوحتا (١٣،١٢)

قبة المحراب في جامع القيروان، وتفاصيل لمجموعة التضليعات الخارجية والتجويفات الداخلية (عن: هيل)

الهوامش

(١) محمد محمد الكحلاوي.

«قبة العقود المركبة بمراكش المعروفة بقبة «البروديين»، بحث تحت الطبع بمجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، وكذلك القباب المقرنصة في عصر المرابطين، بحث تحت الطبع بمجلة العصور.

(٢) تلمسان صيغة جمع بالبربرية لكلمة تلمس التي تعني المكان الذي يستقر فيه الماء ويقال إن تلسمان كانت تدعى أيام الرومان «بوماريا» أي الحدائق ويقال أيضا أصل تلمسان قريتا (آدغادير) و(ناقرارت) اللتان أسسهما ملك مراكش يوسف بن تاشفين، ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان.

وقد وصفها البكري فقال، «هي مدينة مسورة في سفح جبل شجر الجوز ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي فرة. . . وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأنهار عليها طواحين» أبي عبيد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد، مكتبة المثنى ص ص ٧٦ ـ ٧٧.

وانظر وصف مدينة تلمسان: الشريف الإدريسي، وصف إفريقية الشمالية الصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هنري بيريسي، الجزائر، ١٩٥٧م، طبعة معهد الدراسات العليا الإسلامية بالجزائر، ص ص ٥٤، ٥٥.

وانظر أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري، «رحلة العبدري»، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، طبعة جامعة محمد الخامس، ص ١١.

وانظر الحسن بن محمد الوزان الفاسي، «وصف إفريقيا»، جزءان، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، ١٩٨٢م، منشورات الجمعية التاريخية المغربية للتأليف والترجمة، ص ص ١٧ ـ ١٨.

وانظر مارموال كرنجال، «إفريقيا»، جزءان، ترجمة مجموعة باحثين، الرباط، ١٩٨٤م، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، جـ ١، ص ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٣) أنشأ مدينة مراكش يوسف بن تاشفين في عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، وقد استغرق بناؤها ثمانية شهور، وأسس بها قصرا عرف بدار الحجر، ومسجدا جامعا، أما والده علي بن تاشفين فقد سور المدينة بسور من الحجر، وأنفق على بنائه ما يقرب من سبعين ألف دينار، ونقل إليها الماء من خارجها، وظلت مراكش عاصمة المغرب والأندلس لمدة حكم المرابطين والموحدين.

راجع شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت ١٩٨٥م، دار صادر، جـ٥، ص ٩٤.

وانظر أيضا عن مدينة مراكش، مؤلف مجهول، «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية»، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٩٧٩م، طبعة دار الرشاد، ص ١٥.

(٤) Maslow (B.) La Qoubbe Barudiyyin a Marrakech, Al Andalus, Vol., XII, 1948. p.113.

(٥) إن أول مثل لقبة عربية اعتمدت منطقة انتقالها على مقرنصات هي قبة المحراب في المسجد الجامع بالقيروان المؤرخة في ٢٢١هـ/ ٨٣٦م.

أحمد فكري: «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية»، القاهرة ١٩٧٠م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ص ٤١٩.

(٦) قامت فكرة بناء قباب جامع قرطبة على عقود بارزة نصف دائرية من حجر منجور تتقاطع فيما بينها تاركة في وسطها فراغا مثمن الشكل في القباب الثلاث المتجاورة بالمقصورة ومربع الشكل في القبة المخرمة الكبرى.

انظر السيد عبد العزيز سالم، «مظاهر الأصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة»، مقالة منشورة في بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٣م، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، ص٤٦.

(٧) القنانات في المصطلح المعماري هي مجموعة الأقواس أو الضلوع البارزة الرفيعة التي يتكون منها هيكل القبة. انظر فريد شافعي «العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها»، الرياض، ١٩٨٢م، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، ص ١٨٠.

(٨) الأوتار في المصطلح المعماري هي مجموعة الكمرات المتشابكة المكونة لهيكل القبة والتي تنصب على مسطحات مستطيلة ومربعة ومستديرة.

فكري، ص ٤٢٠.

(٩) توصف القبة معماريا بقبة الأقواس المتقاطعة أو العقود المتقاطعة نظرا لأن تخطيطها المعماري يقوم على عقود نصف دائرية بارزة من حجر منجور تتقاطع فيما بينها مؤلفة أشكالا نجمية مضلعة.

انظر السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جزءان، بيروت، ١٩٧١م. دار النهضة، جـ١، ص ٣٩٠.

(١٠) فكري، ص ٤١٩.

(١١) أطلقت قبة الضوء على القبة التي تغطي مصلى فيلا فينوسا بجامع قرطبة، انظر مانويل جوميث مورينو، «الفن الإسلامي في أسبانيا»، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، القاهرة، طبعة الدار القومية للتأليف والترجمة والنشر، ص ١٤٥.

وانظر: HOAG, (J.D.) Western Islamic Architecture, The Great Ages of World Architecture. London - New York, 1955, pp, 94-116.

(١٢) الكحلاوي، «مقاصير الصلاة في العصر الإسلامي»، مقالة بمجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة، ١٩٨٩م، ص ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(١٣) سالم، قرطبة، جـ١، ص ٣٨٦.

(١٤) انتقل نظام القبة المشيدة من الضلوع المتقاطعة من قرطبة إلى طليطلة ومن أمثلتها القباب المتقاطعة في مسجد الباب المردوم، كما انتشر هذا النوع من القباب في كنائس طليطلة ومن أمثلتها: «بيلين» في دير سانتاني وفي قبة «لاس ترنيرياس»، كما ظهر هذا النوع أيضا في قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة. وفي خارج الأندلس ظهر هذا النوع من القباب في كنائس إيطاليا، ومن أمثلتها قبة العقود المتقاطعة «بكنيسة سان لورنز» وقبة العقود في كنيسة «سبكلروفي نفارو» في إيطاليا أيضا.

فكري، ص ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

انظر مورينو، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

انظر سالم، جـ ١، ص ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

(١٥) يعد هذا الجامع من أجمل المساجد المرابطية وقد شيده يوسف بن تاشفين بمدينة الجزائر عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م، ثم قام والده علي بن يوسف بن تاشفين بعمل إضافات معمارية وزخرفية في عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، ثم أعيد تجديده مرة أخرى في عهد دولة بني عبد الواحد من قبل بغمراش بن زيان .

انظر حسين مؤنس، «المساجد»، الكويت، ١٩٨١م . سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٧، ٢١٩٨ .

(١٦) إيلي لامبير، «تطور العمارة الإسلامية في أسبانيا والبرتغال وشمال إفريقيا»، ترجمة عزبة جليان عطا الله، بيروت، ١٩٨٥م . دار آسيا ص ٢٠٦ .

(١٧) Marcais (G.). MANUEL D'ART MUSULMAN L'ARCHITECTURE, Tunisie, Ageree, Maroc, Espag, Sicile., Paris, 1966 Editions Auguste plcard, Paris, Vol. I pp. 318-314.

(١٨) ترتكز أرجل العقود في هذه القبة على حرمدانات (كوابيل) على عكس أرجل عقود قبة قرطبة فهي ترتكز على أعمدة صغيرة ولهذا تميزت وسائد أرجل عقود قبة تلمسان بهذه الحرمدانات .

أرنست كونل، «الفن الإسلامي»، ترجمة أحمد موسى، بيروت، ١٩٦٦م، دار صادر، ص ١٢٣ .

(١٩) يعتبر الدكتور عبد العزيز مرزوق مجموعة الزخارف التي تزين قبة المحراب في جامع تلمسان من أجمل أمثلة الزخارف الجصية في المغرب، حيث تشاهد العين أروع زخارف نباتية محفورة في الجص بعضها مخرم نلمس الضوء من خلال ثقوبه .

محمد عبد العزيز مرزوق، «الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس» بيروت، دار الثقافة، ص٨٦ .

(٢٠) توريس بلباس، «الفن المرابطي والموحدي»، ترجمة سيد غازي، الإسكندرية ١٩٧٦م، دار المعارف الإسلامية، ص ص ٧٥ ـ ٧٦ .

وانظر: Torres Balbas, Ars Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispanico, Editorial plus Ultra, Madrid, p. 33. fig 20.

(٢١) كان هذا التطور في بناء قباب جامع قرطبة خطوة تقدمية كبيرة في التصميم المعماري تلاشت فيه وظيفة منطقة الانتقال والغطاء المنصف للقبة (الخوذة) وأصبح من السهل أن يغطي التصميم المسطحات كافة .

فكري، ص ٤٢٠ .

(٢٢) شافعي، ص ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٢٣) شافعي، . ص ١٨١ .

(٢٤) أرجع بعض الباحثين قباب قرطبة إلى أصول إيرانية متأثرة بقباب الضلوع في جامع أصفهان الكبير، ولكن أ . د . سالم يرى أنه لا يمكن أن تكون قباب أصفهان مصدراً لقباب قرطبة لعاملين أولهما : أن قباب أصفهان تحتوي على نماذج أولية للضلوع المتقاطعة، والعامل الثاني أن قبة أصفهان تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، مما يرجع التأثير القرطبي على أصفهان بصفتها الأقدم .

انظر، دافيد تالبوت رايس، «الفن الإسلامي»، ترجمة د . منير صلاح الراجحي دمشق ١٩٧٧م، مطبعة الجامعة، ص ٨٦ .

وانظر عمر رضا كحالة، «الفنون الجميلة في العصور الإسلامية»، دمشق ١٩٧٢م، المطبعة التعاونية، ص٧٧.

وانظر سالم، «قرطبة»، جـ١، ص ص ٣٩١ـ٣٩٢.

وانظر: Torres Balbas, Arte Hispano Musulman de Las Primeras bovedas francesas, Al - Andalus, Vol III, 1935. pp. 522 - 524.

(٢٥) Marcias: Vol., I., p. 319.

وانظر، شافعي، ص ١٨١.

(٢٦) سالم، «قرطبة»، جـ٢، ص ٣٩١.

(٢٧) رايس، ص ٨٦.

(٢٨) فكري، «أثر العرب»، ص ٤٢٠ـ٤٢١.

وانظر مسجد الزيتونة الجامع في تونس، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثالث، ١٩٥٢م، ص ص ٨٦ـ٨٧.

(٢٩) لا شك أن أوجه التقارب والتشابه بين القباب التونسية في القيروان والزيتونة وبين القباب الأندلسية تنبئ عن أصول مشتركة قد ظهرت في منطقة واحدة، ولما كانت القباب التونسية في القيروان والزيتونة أقدم عهدا من القباب الأندلسية، فإن سمة التطور هي التي أوحت للمعمار القرطبي بناء القبة ذات الضلوع.

فكرى، أثر العرب، ص ٤١٩.

(٣٠) فكرى، أثر العرب، ص ٤١٩.

(٣١) لامبير، تطور العمارة، ص ص ١٢٤ـ١٢٥.

(٣٢) شافعي، العمارة ماضيها، ص ١٨١.

(٣٣) GRABAR (O.), The Formation of Islamic Art, New Haven and London, Yale University Press, fig. 54.

(٣٤) Marcais: Vol I pp., 318 - 320.

(٣٥) شافعي، ص ١٨٠ـ١٨١.

(٣٦) Marcais: Vol I p. 320.

(٣٧) Derk (Hill)., Islamic Architecture in North Africa - Farbr and Faber Limited, Queen Square London. 1976. p. 205.

(٣٨) بلباس، «الفن المرابطي»، ص ٧٦.

(٣٩) ينسب مسجد باب مردوم بطليطلة المعروف الآن، بكنيسة الكريستودي لالوث، إلى الباب الذي يقع المسجد بجواره والمعروف بـ«الباب المردوم» أما المسجد فيحتوي على نص إنشائي منقوش على واجهته يقرأ فيه، «بسم الله الرحمن الرحيم، أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله، فتم بعون الله على يد موسى بن علي البناء وسعادة، فتم في المحرم سنة تسعين وثلاثمائة».

سالم، «المساجد والقصور في الأندلس»، الإسكندرية، ١٩٨٦م، مؤسسة شباب الجامعة، ص ٣٣.

(٤٠) فكرى، جامع القيروان، ص ٤٢٠.

(٤١) بلباس، الفن المرابطي، ص ٧٥.

(٤٢) -Trrasse.. LA MOSQUEE DES TAZA., P.25.
- MASLOW., LES MOSQUEE DE FES ET DE NORD DE MAROC, PARIS, 1934. وانظر

(٤٣) شافعي، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

أولا ـ المصادر العربية :

الإدريسي، الشريف.

«وصف إفريقيا الشمالية»، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق تحقيق هنري بيريس، طبعة معهد الدراسات العليا الإسلامية، الجزائر، ١٩٥٧م.

البكري، أبي عبيد الله.

«المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» وهو جزء من كتاب: «المسالك والممالك»، مكتبة المثنى، بغداد.

الحموي، شهاب الدين ياقوت.

«معجم البلدان»، خمسة أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.

العبدري، أبي عبد الله محمد بن محمد.

«رحلة العبدري»، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، منشورات جامعة الملك محمد الخامس، المغرب.

الوزان، الحسن بن محمد، (ليون الافريقي).

«وصف إفريقيا»، جزءان، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الرباط، ١٩٨٢م.

مجهول، مؤلف.

«الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية»، تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، طبعة دار الرشاد، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.

ثانيا ـ المراجع العربية :

الكحلاوي، محمد محمد.

«مقاصير الصلاة في العصر الإسلامي»، مقالة بمجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.

«قبة العقود المركبة المرابطية بمراكش المعروفة بقبة البرودين»، مقال تحت الطبع بمجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

«القباب المغربية في عصر المرابطين»، مقالة بمجلة العصور، تحت الطبع ـ الرياض.

سالم، السيد عبد العزيز.

«المغرب الكبير العصر الإسلامي»، طبعة دار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦٦م.

«قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس»، جزءان، طبعة دار النهضة، بيروت ١٩٧١م.

«مظاهر الأصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة»، مقالة ضمن كتاب بحوث في تاريخ الحضارة

الإسلامية، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٦م.
« المساجد والقصور في الأندلس»، طبعة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
شافعي، فريد محمود.
«العمارة الإسلامية»، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، نشر عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٢م.
فكري، أحمد.
«مساجد الإسلام (١) مسجد القيروان» طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٣٦م.
« مسجد الزيتونة الجامع في تونس»، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثالث، القاهرة، ١٩٥٢م.
كحالة، عمر رضا.
«الفنون الجميلة في العصور الإسلامية»، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٢م.
مرزوق، محمد عبد العزيز.
«الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس»، دار الثقافة، بيروت، دون تاريخ.
مؤنس، حسين.
« المساجد» سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م.

ثالثا ـ المراجع المعربة:

بلباس، (توريس)
« الفن المرابطي والموحدي»، ترجمة د. سيد غازي، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٧٦م.
رايس، (دافيد تالبوت)
« الفن الإسلامي»، ترجمة د. منير صلاح الأصبحي، مطبعة الجامعة بدمشق ١٩٧٧م.
كونل، (أرنست)
« الفن الإسلامي»، ترجمة أحمد موسى، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
مارموال، (كرنجال).
«إفريقيا»، ترجمة مجموعة باحثين، جزءان، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٤م.
مورينو، (مانويل جوميث)
« الفن الإسلامي في أسبانيا»، ترجمة د. لطفي عبد البديع، ود. السيد عبد العزيز سالم، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
لامبير، (إيلي)
« تطور العمارة الإسلامية في أسبانيا والبرتغال وشمال إفريقيا»، ترجمة عزبة جليان عطا الله، دار آسيا، بيروت، ١٩٨٥م.

رابعا ـ المراجع الأجنبية :

- Balbas (Leopoldo Torres)
- Ars Hispanue Historia Universal del Arte Hispanico - Editorial Plus. Ultra Madrid.
- Arte Hispano Musulmán de las Primeras Bovedas Nervadas Francesas, al-Andalus, Vol. III, 1935.
- GRABAR. (OLEG)
- The Formation of Islamic Art Nem Haven and London, Yale University Press. 1973.
- HOAG. (J.D.)
- Western Islamic Architecture. The Great Ages of World Architecture London - New York. 1955.
- Hill. (Derek)
- Islamic Architecture in North Africa Farbr and Faber Limited Queen Square London, 1976.

Maslow : (Boris)

- Las Mosquee de Fes et Nord de Moroc, Paris, 1034.
- La Qoubbe Barudiyyin a Marrokech al Andalus, Vol. XII, 1948.

Marc : (G).

- Manuel d'Art Musulman l'Architecture - Tunisie, Algerie, Maroc, Espayne, Sicile. Editions Auguste plcard-Paris. 1926.

Terrasse : (H).

- L'Grande Mosquee de Taza Paris.
- L'Art hispono - Mouresque des Origines aul. XIII e Siecle. Paris. 1932.